



## احتساب المسلم على نفسه وجوارحه

إبراهيم بن عبدالله بن إبراهيم المطلق

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن مما عنيت به الشريعة توطين النفس المسلمة على الصبر والجلد، وحملها على مراقبة الله، ومحاسبتها على ما يصدر منها، وجاءت النصوص بأن احتساب المسلم على نفسه بالمفهوم الشرعي وما يتبعه من نفع للإنسان من أعظم الدوافع المحركة للإنسان المسلم ومن أعظم أسباب ثباته على النهج السليم.

وقد اهتم هذا البحث ببيان المفهوم الشرعي لاحتساب المسلم على نفسه وجوارحه ووسائل ذلك وأثره على الإنسان وثمرته النافعة له، مع ذكر أمثلة من حياة السلف الصالح التي تبين مدى تطبيقهم لهذا المفهوم وتمسكهم به.

أسأل الله تعالى التوفيق والإعانة، وأن يجعل هذا البحث مفيدا نافعا للناس في دينهم ودنياهم.

أولا: التعريف بمفردات العنوان:

مفهوم الاحتساب على النفس والجوارح - بمعناه الشرعي - يقوم على أساس تزكية وتطهير النفس والجوارح ومحاسبتها ولومها على التقصير وقصرها على الحق وتعييدها وفطمها عليه وحملها على الخير.

وكما قال الشاعر:

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حبِّ الرضاع وإن تفضمه ينطم  
والنفس عرفها علماء الشريعة أنها مرادفة لمعنى الروح.

قال ابن قيم: "قال أبو محمد بن حزم: وذهب سائر أهل الإسلام والملل المُقِرَّة بالمعاد إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان جثَّة متحيِّزة مصرَّفة للجسد، قال: وبهذا نقول، قال: والنفس والروح اسمان مترادفان لمعنى واحد ومعناهما واحد"<sup>(١)</sup>.

والجوارح هي أعضاء الإنسان الظاهرة ومنها اللسان والبصر والسمع واليد والقدم والفرج .

ثانيا: أهمية النفس والجوارح ومكانتها:

النفس أعظم أمانة أوْتمن عليها الإنسان وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بها في كتابه، فقال:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ، (سورة الشمس، الآية: ٧).

والنفس هي وسيلة إحساس الإنسان ومصدر عواطفه وحركته، وهي تتأثر بما يقع لجوارح الإنسان وتؤثر فيها. قال ابن قيم: "فالروح هي المدركة لمدارك هذه الحواس بواسطة آلتها فالنفس هي الحاسة المدركة وإن لم تكن محسوسة بالأجسام والأعراض محسوسة والنفس محسوسة بها وهي القابلة لأعراضها المتعاقبة عليها من الفضائل والردائل كقبول الأجرام لأعراضها المتعاقبة عليها وهي المتحركة باختيارها المحركة للبدن قسراً وقهراً، وهي مؤثرة في البدن متأثرة به تتألم وتتلاذذ وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتنعم وتبأس وتحب وتكره وتذكر وتنسى وتصعد وتنزل وتعرف وتنكر، وآثارها من أدلِّ الدلائل على وجودها، كما أن آثار الخالق سبحانه دالة على وجوده وعلى كماله فإن دلالة الأثر على مؤثره ضرورية"<sup>(٢)</sup>.

وقد جاءت النفس كإحدى الضرورات الخمس الواجب على المسلم حفظها وصيانتها والإبقاء عليها، وجعل العلماء ذلك من مقاصد الشريعة. قال العلامة بدر الدين العيني في عمدة القاري: "الضرورات الخمس الواجبة رعايتها في جميع الأديان التي بحفظها صلاح المعاش والمعاد ونظام أحوال الدارين وهي الدين والعقل والنفس والنسب والمال"<sup>(٣)</sup>.

وإذا كانت النفس هي موطن إحساس الإنسان وعواطفه، فإن الجوارح هي ما يظهر عليها أثر ذلك وهي الأداة والوسيلة لأداء كثير من العبادات العملية الظاهرة. فالإنسان يؤدي بجوارحه فرائض

١- ابن قيم الجوزية: الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء، ج ١، ص ١٧٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٢- ابن قيم: الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء، ج ١، ص ٢١٤.

٣- بدر الدين العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج ٢، ص ٨٥، برنامج حاسوبي: الموسوعة الشاملة، الناشر: ملتقى أهل الحديث، ٢٠٠٥م.

الصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة ويؤدي بها كذلك الدعاء والاستغفار... إلخ. فبما يتحرك في نفس الإنسان وقلبه وباطنه يظهر أثر ذلك عليه، فيعمل بمقتضاه بأمر الله وقضاه لذلك وتنزله له على أعمال جوارحه الظاهرة.

قال الإمام ابن تيمية: "وشهادة القرآن والأحاديث ورؤية أهل البصائر والاستدلال التام لتقليب الله سبحانه وتعالى قلوب العباد وتصريفه إياها وإلهامه فجورها وتقواها وتنزيل القضاء النافذ من عند العزيز الحكيم في أدنى من لمح البصر على قلوب العالمين حتى تتحرك الجوارح بما قضى لها وعليها بين غاية البيان"<sup>(٤)</sup>.

وقد جعلت الجوارح وسيلة لقيام حياة الإنسان الطبيعية إضافة إلى كونها من وسائل أداء العبادات الظاهرة، فاستدل بعض العلماء بوجودها وفضلها على وحدانية الله في ربوبيته.

قال الإمام ابن تيمية ناقلاً عن الخطابي: "وقد نبههم الكتاب عليه ودعاهم إلى تدبره وتأمّله والاستدلال به على ثبوت ربوبيته فقال عز وجل: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: إشارة إلى ما فيها من آثار الصنعة ولطيف الحكمة الدالين على وجود الصانع الحكيم لما ركّب فيها من الحواس التي عنها يقع الإدراك والجوارح التي يباشر بها القبض والبسط والأعضاء والمعدة للأفعال التي هي خاصة بها كالأضراس الحادثة فيهم عند استغنائهم عن الرضاع وحاجتهم إلى الغذاء فيقع بها الطحن له والمعدة التي اتخذت لطبخ الغذاء والكبد التي يسلك إليها صفاوته وعنهما يكون انقسامه على الأعضاء في يماري العروق المهيأة لنفوذها إلى أطراف البدن"<sup>(٥)</sup>.

المبحث الأول: مشروعية احتساب المسلم على نفسه وجوارحه:

أولاً: الأدلة من القرآن الكريم:

وجّه الإسلام النفس المؤمنة إلى القيام بلوازم هذا الإيمان وشروطه، من الامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه، ومراقبة هذه النفس ومحاسبتها، وإلزامها بالانقياد إلى الحق والاستسلام لأمر الله واتباع شرعه، وجعل التقوى سبيل ذلك.

٤- أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحرانی: مجموع الفتاوى، ج ٨، ص ٣٩٠، برنامج حاسوبي: الموسوعة الشاملة، الناشر: ملتقى أهل الحديث، ٢٠٠٥م.

٥- أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة: درء تعارض العقل والنقل، ج ٤، ص ٢٥، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، الرياض، ١٣٩١هـ.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ، (سورة التحريم، الآية: ٦)، قال السَّعدي: "ووقاية الأنفس بالزامها أمر الله، امتثالاً، ونهيها اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله، ويوجب العذاب. ووقاية الأهل والأولاد، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله. فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيمن تحت ولايته وتصرفه" (٦).

وفي شأن القلب والجوارح قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ، (سورة الإسراء، الآية: ٣٦)، قال ابن كثير: "أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة وتساءل عنه عما عمل فيها" (٧). وقال الألوسي: "واستدل بالآية على أن العبد يؤاخذ بفعل القلب كالتصميم على المعصية والأدواء القلبية كالحقد والحسد والعجب" (٨).

فتبين من هذه الأقوال أن الإنسان سيسأل عن قلبه وجوارحه، مع النهي عن الوقف عما ليس له به علم بواسطة هذه الجوارح.

قال في التحرير والتنوير: "أي أنك أيها الإنسان تسأل عما تسنده إلى سمعك وبصرك وعقلك بأن مراجع القفو المنهي عنه إلى نسبة لسمع أو بصر أو عقل في المسموعات والمبصرات والمعتقدات" (٩). وقال: "والمعنى: كل السمع والبصر والفؤاد كان مسؤولاً عن نفسه ومحقوقاً بأن يبين مستند صاحبه من حسه" (١٠).

٦- عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - سورة التحريم: الآية ٦-

الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة الرضا - ١٤٠٤ هـ.

٧- إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٥٧، مكتبة دار السلام، القاهرة.

٨- محمود الألوسي أبو الفضل: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج ١٥، ص ٧٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج ١، ص ٢٤٥٨، برنامج حاسوبي: الموسوعة الشاملة، الناشر: ملتقى أهل الحديث، ٢٠٠٥ م.

١٠- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١، ص ٢٤٥٧.

فإذا كان الإنسان مسؤولاً عن نفسه وجوارحه، كما تدل عليه الآيات وتصرّح به أقوال المفسّرين، فيجب عليه أن يراعي تلك المسؤولية وأن يحاسب نفسه ويقصرها على الحق، وأن يمنع جوارحه عن الجنوح إلى محارم الله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، (سورة الحشر، الآيتان: ١٨ - ١٩).

قال السعدي: "يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرّاً وعلانيةً، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة" (١١). ثم قال في صلة معاني الآيات بمحاسبة النفس: "وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله بذل جهده واستعان بربه في تكميله وإتقانه. ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء لا محالة. والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر ويشابه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل. بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً، لا يمكن تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم، وأوضاعوا في معاصيه" (١٢).

وقال ابن كثير: "أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد ثانٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي اعملوا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب من أموركم جليل ولا حقير" (١٣).

١١- السعدي: تيسير الكريم الرحمن، سورة الحشر، الآيتان: ١٨ - ١٩.

١٢- السعدي: المصدر السابق، سورة الحشر، الآيتان: ١٨ - ١٩.

١٣- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ج ٤، ص ٤٣٨.

ثانياً: الأدلة من السنّة المطهرة:

حثّ نبينا صلى الله عليه وسلم المؤمنين على محاسبة النفس ونبذ الهوى، فقال: "الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله" (١٤).  
قال أبو العلا المباركفوري: "أي العاقل المتبصر في الأمور الناظر في العواقب من دان نفسه أي حاسبها وأذلها واستعبدها وقهرها حتى صارت مطيعة منقادة (وعمل لما بعد الموت) قبل نزوله ليصير على نور من ربّه فالموت عاقبة أمر الدنيا فالكيس من أبصر العاقبة والعاجز المقصر في الأمور من أتبع نفسه هواها من الإتياع أي جعلها تابعة لهواها فلم يكفها عن الشهوات ولم يمنعها عن مقارنة المحرّمات" (١٥).

وجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم احتساب المرء على نفسه وعقله وجوارحه من الاستحياء من الله حق الحياء. فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استحيوا من الله حق الحياء قال قلنا يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال: ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى ولتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء" (١٦).

قال أبو العلا المباركفوري: "أي ليس حق الحياء ما تحسبونه بل أن يحفظ جميع جوارحه عما لا يرضى ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس أي عن استعماله في غير طاعة الله بأن لا تسجد لغيره ولا تصلي للرياء ولا تخضع به لغير الله ولا ترفعه تكبّراً "وما وعى" أي جمعه الرأس من اللسان والعين والأذن عما لا يحلّ استعماله "وتحفظ البطن" أي عن أكل الحرام "وما حوى" أي ما اتصل اجتماعه به من الفرج والرجلين واليدين والقلب فإن هذه الأعضاء متصلة بالجوف وحفظها بأن لا تستعملها في المعاصي بل في مرضاة الله تعالى" (١٧).

---

١٤- محمد بن عيسى الترمذي: الجامع الصحيح سنن الترمذي، ج ٤، ص ٦٣٨، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥- محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، ج ٧، ص ١٣٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦- الترمذي: السنن، ج ٤، ص ٦٣٧.

١٧- المباركفوري: تحفة الأحوذى، ج ٧، ص ١٣١.

وتصل محاسبة النفس أعلى درجاتها بمراقبة الإنسان لله سبحانه وتعالى في جميع أعماله كما وضّحه صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح في مفهوم الإحسان، لما سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" (١٨).

قال النووي: "فقال صلى الله عليه وسلم اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان فان التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد فينبغي أن يعمل بمقتضاه. فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك" (١٩).

ثالثاً: احتساب السلف الصالح على أنفسهم وجوارحهم:

لما كان السلف الصالح من ذوي العلم والبصيرة، تحقق لديهم أن من وسائل النجاة تمام التزامهم بمراقبة أنفسهم ومحاسبتها وإلزامها بالحق والبعد عن الهوى، فامتازت أجيالهم الفريدة بذلك على مرّ تاريخ الإسلام.

جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في مسير له فسمع صوتاً فأمر أصحابه فوقفوا وسار حتى أشرف على رجل في واد فإذا هو قد نزع ثيابه وهو يترمض في الرمضاء فإذا هو يقول أنوم الليل وباطل النهار فوقف النبي صلى الله عليه وسلم ما يشاء الله أن يقف لا يأتيه ثم لبس ثيابه فأتاه فسلم عليه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أما رأيتني قال بلى، ولكنه كان في نفسي شيء فلم أرد أن أقوم حتى أقضي ما في نفسي أو كما شاء الله أن يقول، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد رأيت السموات السبع يفتحن لما تصنع وإن ذا العرش سبحانه وتعالى ليباهي به الملائكة ثم مضى إلى أصحابه فقال أيكم يعرف هذا فما عرفه أحد من القوم إلا رجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تزودوا منه فإنه لن يلبث فيكم إلا قليلاً فقالوا ادع لنا فقال اللهم اجعل زادهم التقوى قالوا زدنا قال وأصلح ذات بينهم (٢٠).

١٨- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، ج ١، ص ٣٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٩- يحيى بن شرف بن مري النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم، ج ١، ص ١٥٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٢٠- عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي: الزهد، ج ١، ص ٣٠٢، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

ويروى عن عمر بن الخطاب قال: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتزينوا للعرض الأكبر وإنما يخفّ الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا" (٢١). وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه ثم يقول: "حس يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا" (٢٢). ويروى عن ميمون بن مهران قال: "لا يكون العبد تقيا حتى يحاسب نفسه يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه" (٢٣). وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يمسك بلسانه ويقول لقد أوردني هذا المورد (٢٤).

وقال الحسن: "المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله وإنما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وإنما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه فيقول: والله إنني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة إليك هيهات هيهات حيل بيني وبينك ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، مالي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبدا. إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم. وإن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئا حتى يلقي الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه مأخوذ عليه في ذلك كله" (٢٥).

وقال مالك بن دينار: "رحم الله عبدا قال لنفسه: ألسنت صاحبة كذا ألسنت صاحبة كذا ثم زمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله عز وجل فكان لها قائدا" (٢٦). وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: "مكتوب في حكمة آل داؤد: حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه وساعة يتخلّى فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل فإن في هذه الساعة عوناً على تلك

٢١- الترمذي: السنن، ج ٤، ص ٦٣٨.

٢٢- ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من موائد الشيطان، ج ١، ص ٧٩، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٢٣- الترمذي: السنن، ج ٤، ص ٦٣٨.

٢٤- ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد، ج ٣، ص ٧٥٢، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٢٥- ابن قيم: إغاثة اللهفان، ج ١، ص ٧٩.

٢٦- ابن قيم: المصدر السابق، ج ١، ص ٧٩.



الساعات وإجماما للقلوب". وقد روي هذا مرفوعاً من كلام النبي صلى الله عليه وسلم رواه أبو حاتم وابن حبان وغيره (٢٧).

وكتب عمر بن الخطاب إلى بعض عمّاله: "حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضى والغبطة ومن ألهمته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة" (٢٨).

قال ابن قيم: "ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف ونحن جَمَعْنَا بين التقصير بل التفريط والأمن، فهذا الصديق يقول وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن. ذكره أحمد عنه؛ وذكر عنه أيضاً أنه كان يمسك بلسانه ويقول هذا الذي أوردني الموارد. وكان يبكي كثيراً ويقول: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا. وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عودٌ من خشية الله عز وجل" (٢٩).

المبحث الثاني: النفس عدوة لصاحبها وجوارحه شهود عليه:

أولاً: تحذير الإنسان من نفسه:

دلّت الأدلة الشرعية على أن النفس تبع لما تشتهييه، فهي تأمر صاحبها به وإن كان على غير هدى الله، فجاءت النصوص الشرعية بتحذير الإنسان من ذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾. (سورة يوسف، الآية: ٥٣). قال الطبري: "إن النفوس نفوس العباد تأمرهم بما تهواه وإن كان هواها في غير ما فيه رضى الله ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ يقول: إلا أن يرحم ربّي من شاء من خلقه فينجيه من اتباع هواها وطاعتها فيما تأمره به من السوء" (٣٠). وقال الشوكاني: "أي إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء ليله إلى الشهوات وتأثيرها بالطبع وصعوبة قهرها وكفها عن ذلك ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء أو إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها" (٣١). ويفيد قوله "أمارة بالسوء" أن النفس كثيرة الأمر

٢٧- ابن قيم: المصدر السابق، ج ١، ص ٧٩.

٢٨- ابن قيم: المصدر السابق، ج ١، ص ٧٩.

٢٩- ابن قيم الجوزية: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ج ١، ص ٢٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٠- محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، ج ٧، ص ٢٣٧، برنامج حاسوبي: الموسوعة الشاملة، الناشر: ملتقى أهل الحديث، ٢٠٠٥م.

٣١- محمد بن علي الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج ٣، ص ٥٠، دار الفكر، بيروت.

لصاحبها بفعل السوء في كثير من الأوقات ودفعه إلى الزلل في ما حرمه الله. قال في التحرير والتنوير: "لأن النفوس كثيرة الأمر بالسوء والاستثناء في ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ استثناء من عموم الأزمان أي أزمان وقوع السوء بناء على أن أمر النفس به يبعث على ارتكابه في كل الأوقات إلا وقت رحمة الله عبده أي رحمته بأن يفيض له ما يصرفه عن فعل السوء أو يقيض حائر بينه وبين فعل السوء" (٣٢). وجاء في الأثر: "أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك" (٣٣).

كما جاءت الآيات بتحذير الإنسان من اتباع هوى نفسه والميل إلى شهواته دون أن يضبطها بضوابط الشرع والتقييد بأحكام الحلال والحرام. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، (سورة الجاثية، الآية: ٢٣). فجعل اتباع هوى النفس سبباً للضلال والختم على القلب والسمع والبصر، فلا يجد من يهديه من بعد الله. قال ابن كثير: "أي إنما يأتمر بهواه فما رآه حسناً فعله وما رآه قبيحاً تركه... فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به ولا يرى حجةً يستضيء بها" (٣٤). وجاء في تفسير البيضاوي: "ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى فكأنه يعبده... فلا يبالي بالمواظب ولا يتفكر في الآيات ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ فلا ينظر بعين الاستبصار والاعتبار" (٣٥). وقال في التحرير والتنوير: "واتباع الهوى ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة على ما يدعو إليه الحق والرشد، فالاتباع مستعار للاختيار والميل والهوى شاع في المحبة المذمومة الخاسرة عاقبتها" (٣٦). وقال في موضع آخر: "وتقييد اتباع الهوى بأنه بغير علم تشنيع لهذا الاتباع فإنه اتباع شهوة مع جهالة فإن العالم إذا اتبع الهوى كان متحرراً من التوغل في هواه لعلمه بفساده" (٣٧).

٣٢- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١، ص ٢١٩٤.

٣٣- أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٣، ص ٤٥، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٤- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ١٩١.

٣٥- عبد الله بن عمر البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ١، ص ١٧٢، دار الفكر، بيروت.

٣٦- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١، ص ١٦٧٤.

٣٧- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١، ص ٣٢٤١.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ، (سورة الكهف، الآية: ٢٨)، فحذّر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الإنسان من اتباع هوى نفسه، فيصبح أمره فرطاً، أي: تصبح مصالح دينه ودنياه ضائعة معطلة. قال السعدي: "أي: صار تبعاً لهواه، حيث ما اشتتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه" (٣٨).

وقد جعل الله المتبع لهوى نفسه من غير أن يهتدي بشرع الله من أضلّ الخلق، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ، (سورة القصص، الآية: ٥٠)، قال السعدي: "فهذا من أضلّ الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه. ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى. فهل أحد أضلّ ممن هذا وصفه؟ ولكن ظلمه وعدوانه وعدم محبته للحق هو الذي أوجب له: أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله، فلماذا قال: "إن الله لا يهدي القوم الظالمين" أي: الذي صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدّوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائهم وهلاكهم يترددون" (٣٩).

#### ثانياً: فساد القلب فساد للجوارح:

منزلة القلب في البدن كمنزلة القائد بين جنوده فهو الحاكم عليهم، كذلك القلب في البدن هو المتصرّف فيه وبأمره تأتمر باقي الأعضاء وتخضع له وتتبعه في الاستقامة أو الانحراف، فإذا صلح القلب صلحت الجوارح وإذا فسد القلب فسدت الجوارح.

يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسدت الجسد كله ألا وهي القلب" (٤٠). قال النووي في شرح الحديث: "صلاح الجسد وفساده تابعان للقلب وفي هذا الحديث تأكيد على السعي في صلاح القلب وحمايته من الفساد واحتج بهذا الحديث على أن العقل في القلب لا في الرأس وفيه خلاف مشهور مذهب أصحابنا وجماهير

٣٨- السعدي: تيسير الكريم الرحمن، سورة الكهف، الآية ٢٨.

٣٩- السعدي: تيسير الكريم الرحمن، سورة القصص، الآية: ٥٠.

٤٠- محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، ج ١، ص ٢٨، تحقيق: مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة، جامعة دمشق، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

المتكلمين أنه في القلب” (٤١). وقال في عمدة القاري: ”قوله مضغة أطلقها على القلب إرادة تصغير القلب بالنسبة إلى باقي الجسد مع أن صلاح الجسد وفساده تابعان له أو لما كان هو سلطان البدن لما صلح، صلح الأعضاء الأخر التي هي كالرعية. وهو بحسب الطب أول نقطة تكون من النطفة ومنه تظهر القوى ومنه تنبعث الأرواح ومنه ينشأ الإدراك وبيبتدئ التعقل، فلهذه المعاني خصّ القلب بذلك” (٤٢).

وكثيراً ما يأتي القلب كأداة للفهم في الخطاب القرآني. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ، (سورة الحج، الآية: ٤٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ، (سورة الأعراف، الآية: ١٧٩). قال في شرح سنن ابن ماجه: ”فالتحقيق في هذا المقام أن بين القلب والأعضاء تعلق عجيب وتأثير غريب بحيث تسري مخالفة كل إلى الآخر، ألا ترى أن تبريد الظاهر يؤثر في الباطن وبالعكس” (٤٣). ومن هذا يتضح أنه إذا فسد القلب ومرض فسدت أعمال جوارحه، ولم يعد له معرفة بالله ومحبته والشوق والإنابة إليه وعمل الخير.

قال ابن قيم عن مرض القلب: ”ومرض القلب أن يتعدّر عليه ما خلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك على كل شهوة، فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئاً، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه والأنس به فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرّة عين؛ بل إذا كان القلب خالياً عن ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذاباً له ولا بد فيصير معدّباً بنفس ما كان منعمّاً به من جهتين: من جهة حسرة فوته وأنه حيل بينه وبينه مع شدة تعلق روحه به، ومن جهة فوت ما هو خير له وأنفع وأدوم حيث لم يحصل له، فالمحبوب الحاصل فات والمحبوب الأعظم لم يظفر به. وكل من عرف الله أحبه وأخلص العبادة له ولا بد ولم يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه

٤١- النووي: المنهاج، ج ١١، ص ٢٨.

٤٢- العيني: عمدة القاري، ج ١، ص ٢٩٥.

٤٣- السيوطي، عبدالغني، فخر الحسن الدهلوي: شرح سنن ابن ماجه، ج ١، ص ٦٩، قديمي كتب خانه، كراتشي.

مريض كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيب سقطت عنها شهوة الطيب وتعوّضت بمحبّة غيره، وقد يمرض القلب ويشتدّ مرضه ولا يعرف به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه وتألم بجهله بالحق بحسب حياته" (٤٤).

أما القلب السليم فيكون بعكس ذلك فتصبح حياة صاحبه وأعماله كلها من أجل الله ومن أجل نيل رضوانه.

قال ابن قيم: "وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي همّه كله في الله وحبّه كله له وقصده له وبدنه له وأعماله له ونومه له ويقظته له وحديثه له، والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم على مرضيه ومحابه: الخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحبّ إليه وأرضى له قرّة عينه به وطمانينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتاً إلى غيره تلا عليها ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾ فهو يردّد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربّه يوم لقائه فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية فتصير العبودية صفّة له وذوقاً لا تكلفاً فيأتي بها تودّداً وتحبباً وتقرباً كما يأتي المحبّ المقيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله، فكلما عرض له أمر من ربّه أو نهى أحس من قلبه ناطقاً ينطق لبك وسعديك إنني سامع مطيع ممتثل ولك علي المنة في ذلك والحمد فيه عائد إليك وإذا أصابه قدر وجدّ من قلبه ناطقاً يقول أنا عبدك ومسكينك وفقيرك وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين وأنت ربّي العزيز الرحيم لا صبر لي إن لم تصبرني ولا قوة لي إن لم تحملني وتقوّني لا ملجأ لي منك إلا إليك ولا مستعان لي إلا بك ولا انصراف لي عن بابك ولا مذهب لي عنك فينطرح بمجموعه بين يديه ويعتمد بكليته عليه" (٤٥).

ثالثاً: الجوارح تنطق بالشهادة على صاحبها:

إذا كانت الجوارح خاضعة لإرادة الإنسان في الدنيا منقادة لرغبات نفسه ومستسلمة لما يأمرها به قلبه، فيمكنه أن يقول بلسانه ما يريد أو يسير بجوارحه حيث يشاء، فإنها في لحظة

٤٤- ابن قيم: إغاثة اللهفان، ج ١، ص ٦٨.

٤٥- ابن قيم: إغاثة اللهفان، ج ١، ص ٧٣.

الحساب في الآخرة تسيير على منطق آخر هو منطق الصدق، فينطقها الله بالحق لتشهد على صاحبها بأعماله وما استعملها فيه.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ عَلَيْنَا لَأَنطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، (سورة فصلت، الآية: ١٩ - ٢٢).

وعن أنس بن مالك قال: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال هل تدرون مما أضحك؟ قال: قلنا الله ورسوله أعلم، قال من مخاطبة العبد ربّه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجزى على نفسي إلا شاهداً مني قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتيبين شهودا، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانها: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعدا لكن وسحقا فعنك كنت أناضل" (٤٦). وفي حديث أبي هريرة ثم يقال: ... "الآن نبعث شاهداً عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي سخط الله عليه" (٤٧). قال القرطبي عن هذا الموقف العظيم: "حتى إذا ما جاؤوا النارَ شهد عليهم سمعهم بما كانوا يصغون به في الدنيا إليه ويستمعون له وأبصارهم بما كانوا يبصرون به وينظرون إليه في الدنيا" (٤٨).

وقال في التحرير والتنوير: "وشهادة جوارحهم وجلودهم عليهم: شهادة تكذيب وافتضاح لأن كون ذلك شهادة يقتضي أنهم لما رأوا النار اعتذروا بإنكار بعض ذنوبهم طمعا في تخفيف العذاب وإلا فقد علم الله ما كانوا يصنعون وشهدت به الحفظة وقرئ عليهم كتابهم وما أحضروا للنار إلا وقد تحققت إدانتهم فما كانت شهادة جوارحهم إلا زيادة خزي لهم وتحسيرا وتنديما على سوء اعتقادهم

٤٦- مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، ج ٤، ص ٢٢٨٠.

٤٧- صحيح مسلم، ج ٤، ص ٢٢٧٩.

٤٨- محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ج ١١، ص ٩٩،

دار الكتاب العربي، بيروت.

في سعة علم الله<sup>(٤٩)</sup>. وبعد أن تشهد الجوارح على أصحابها بما عملوه في الدنيا من المعاصي والآثام، يرد عليها أصحابها مستنكرين عليها فعلها لائمين لها عليه.

قال القرطبي: "وقال هؤلاء الذين يحشرون إلى النار من أعداء الله سبحانه لجلودهم إذ شهدت عليهم بما كانوا في الدنيا يعملون: لم شهدتم علينا بما كنا نعمل في الدنيا؟ فأجابتهم جلودهم: ﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فنطقنا وذكر أن هذه الجوارح تشهد على أهلها عند استشهاد الله إياها عليهم إذا هم أنكروا الأفعال التي كانوا فعلوها في الدنيا بما يسخط الله<sup>(٥٠)</sup>. فيكون جواب جلودهم عليهم بأن ذلك من خوارق العادات وأن الله أنطقهم بشهادة الحق في الآخرة. قال ابن كثير: "أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون منه في زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم"<sup>(٥١)</sup>. وفي شهادة جوارح البشر عليهم أبلغ حجة وأدغمها في إظهار ما يظنون أنهم يسترونه، على عكس مجاهرتهم به وإشهاره في الدنيا.

قال في التحرير والتنوير: "فالمعنى: ما كنتم في الدنيا تخفون شرككم وتسترون منه بل كنتم تجهرون به وتفخرون باتباعه فماذا لومكم على جوارحكم وأجسادكم أن شهدت عليكم بذلك فإنه كان أمرا مشهورا فلاستتار مستعمل في الإخبار مجازا لأن حقيقة الاستتار إخفاء الذوات والذي شهدت به جوارحهم هو اعتقاد الشرك والأقوال الداعية إليه"<sup>(٥٢)</sup>.

المبحث الثالث: مسؤولية المسلم عن نفسه وجوارحه:

أولا: مسؤولية المسلم في زكاة نفسه:

مفهوم تزكية النفس بمعنى تطهيرها وتنقيتها وإزالة خبثها وذلك بالإيمان بالله وطاعته وتقواه وعبادته، وهي واجب على كل مؤمن بالله ورسوله، وأصل الزكاة الزيادة في الخير. قال تعالى عن جزاء تزكية النفس: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾، (سورة طه، الآية: ٧٦).

٤٩- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١، ص ٣٨٠٨.

٥٠- تفسير القرطبي: ج ١١، ص ٩٩.

٥١- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ١٢١.

٥٢- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١، ص ٣٨٠٩.

قال السعدي: "أي: تطهّر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية أو يتوب مما فعله منها وزكى أيضا نفسه ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين: التنقية وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة لهذين الأمرين" (٥٣). وقال ابن كثير: "أي طهّر نفسه من الدنس والخبث والشرك وعبد الله وحده لا شريك له واتبع المرسلين فيما جاؤوا به من خير" (٥٤). وأعظم ما تتزكى به النفس هو الإيمان والتوحيد والتطهّر من الشرك ووسائله ونبذته والتبرؤ منه. قال ابن تيمية: "ولهذا كان التوحيد والإيمان أعظم ما تزكو به النفس وكان الشرك أعظم ما يديسها وتتزكى بالأعمال الصالحة والصدقة هذا كله مما ذكره السلف" (٥٥).

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ ، (سورة الأعلى الآيتان: ١٤-١٥)، فقيّد الفلاح بتزكية النفس وتطهيرها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق. قال في التحرير والتنوير: "وقدّم التزكي على ذكر الله والصلاة لأنه أصل العمل بذلك كله فإنه إذا تطهّرت النفس أشرقت فيها أنوار الهداية فعلمت منافعها وأكثرت من الإقبال عليها فالتزكية: الارتياض على قبول الخير والمراد تزكى بالإيمان" (٥٦). وجاء في تفسير أبي السعود: "أي تطهّر من الكفر والمعاصي بتذكره واتعاطه بالذكرى أو تكثرت من التقوى والخشية من الزكاء وهو النماء وقيل تطهّر للصلاة وقيل تزكى تفعل من الزكاة" (٥٧).

ومن آثار تزكية النفس على الإنسان انشراح الصدر وانبساطه وحصول السعادة والرضا والطمأنينة. قال ابن تيمية: "ولن ينمو الخير إلا بترك الشرّ والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل، وكذلك النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما يناقضها، ولا يكون الرجل متزكيا إلا مع ترك الشر فإنه يدنس النفس ويديسها... فالبر والتقوى يبسط النفس ويشرح الصدر بحيث يجد الإنسان في

٥٣- السعدي: تيسير الكريم الرحمن، سورة طه، الآية: ٧٦.

٥٤- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٢١٦.

٥٥- ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ١٠، ص ٦٣٢.

٥٦- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١، ص ٤٨٠٠.

٥٧- محمد بن محمد العمادي أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)،

ج ٩، ص ١٤٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت.



نفسه اتساعا وبسطا عما كان عليه قبل ذلك فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح صدره والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها” (٥٨).

ومن آثار تزكية النفس حصول العلم والهداية والفوز برضا الله وإرشاده لعباده. قال ابن تيمية: ”لتزكية النفس والعمل بالعلم وتقوى الله تأثير عظيم في حصول العلم لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلا بنظر وتدبر وفهم لما بعث الله به الرسول ولو تعبد الإنسان ما عسى أن يتعبد لم يعرف ما خص الله به محمدا صلى الله عليه وسلم إن لم يعرف ذلك من جهته” (٥٩). فتزكية النفس من مسؤولية المسلم تجاه نفسه وفائدة ذلك وثمرته إنما هي عائدة عليه، نافعة له في دنياه وآخرته.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾، (سورة فاطر، الآية: ١٨). قال السعدي: ”ومن زكى نفسه بالتنقي من العيوب، كالرياء والكبر والكذب والغش والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلّى بالأخلاق الجميلة، من الصدق والإخلاص والتواضع ولين الجانب والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد، وغيرها من مساوئ الأخلاق، فإن تزكيتة يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء” (٦٠). وقال الشوكاني: ”والمعنى: أن من تطهر بترك المعاصي واستكثر من العمل الصالح فإنما يتطهر لنفسه لأن نفع ذلك مختص به كما أن وزر من تدنس لا يكون إلا عليه” (٦١).

ثانيا: مسؤولية المسلم في إصلاح قلبه:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب” (٦٢). وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال: ”كل مخموم القلب صدوق اللسان”. قالوا: صدوق اللسان نعرفه. فما مخموم القلب؟ قال: ”هو التقي النقي. لا إثم فيه ولا بغي ولا غلّ ولا حسد” (٦٣).

٥٨- ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ١٠، ص ٦٢٩.

٥٩- ابن تيمية: منهاج السنّة النبوية، ج ٥، ص ٤٣٠، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٦٠- السعدي: تيسير الكريم الرحمن، سورة فاطر، الآية: ١٨.

٦١- الشوكاني: فتح القدير، ج ٤، ص ٤٩٠.

٦٢- البخاري: صحيح البخاري، ج ١، ص ٢٨.

٦٣- محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني: سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١٤٠٩، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي،

دار الفكر، بيروت.

وقد جعل صلاح القلب وسلامته من أسباب النجاة في الآخرة. قال تعالى بما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُحْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، (سورة الشعراء، الآيات: ٨٧ - ٨٩). وصلاح القلب يقتضي علم الإنسان بالنافع والضار من الأمور وأنه يؤتى بصلاح قلبه هذا الحكمة مع العلم، فيصبح قلبه حياً مستنيراً.

قال ابن تيمية: "فصلاح القلب وحقه والذي خلق من أجله هو أن يعقل الأشياء - لا أقول أن يعملها فقط - فقد يعلم الشيء من لا يكون عاقلاً له بل غافلاً عنه ملغياً له، والذي يعقل الشيء هو الذي يقيدده ويضبطه ويعيبه ويثبتته في قلبه فيكون وقت الحاجة إليه غنياً فيطابق عمله قوله وباطنه ظاهره، وذلك هو الذي أوتي الحكمة" (٦٤). وقال: "وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع كقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، (سورة الأنفال، الآية: ٢٤) (٦٥).

وإصلاح الجوارح إنما يكون بإصلاح القلب وتطهيره وعمارته بالتقوى، فيكون إصلاح القلب هو المقصود الأول. قال أبو حامد الغزالي: "مهما عرف أن زاد السفر إلى الآخرة التقوى فليعلم أن التقوى محلها ومنبعها القلب لقوله صلى الله عليه وسلم: "التقوى ههنا وأشار إلى صدره"، وينبغي أن يكون الاجتهاد في إصلاح القلب أولاً، إذ صلاح الجوارح تابع له لقوله صلى الله عليه وسلم إن في بدن ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب، وإصلاح القلب شرطه تقدم تطهيره عليه وطهارته في أن يطهر عن حب الدنيا، لقوله صلى الله عليه وسلم: "حب الدنيا رأس كل خطيئة" وهذا هو الداء الذي أعجز الخلق ومن ظن أنه يقدر على الجمع بين التنعم في الدنيا والحرص على ترتيب أسبابها وبين سعادة الآخرة فهو مغرور" (٦٦).

٦٤- ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٩، ص ٣٠٩.

٦٥- ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ١٠، ص ١٠٠.

٦٦- أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية، ج ١، ص ١٩٧، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت.

وقال ابن قيم: "كان صرف الهمم والقوى إلى علاج القلوب والأرواح وحفظ صحتها ودفع أسقامها وحميتها مما يفسدها هو المقصود بالقصد الأول وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جدا وهي مضرّة زائلة تعقبها المنفعة الدائمة التامة" (٦٧).  
 وقال ابن تيمية: "وأصل صلاح القلب صلاح إرادته ونيته، فإن لم يصلح ذلك لم يصلح القلب" (٦٨).  
 وقال ابن قيم: "والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس وفساده بإهمالها والاسترسال معها" (٦٩).  
 وكما أن صلاح القلب يؤدّي إلى صلاح الجوارح، فإن أعمال الجوارح الصالحة تعود على القلب بالنفع والصلاح. قال ابن قيم: "بل في الحقيقة أعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها فإن الثواب والعقاب والمدح والذمّ وتوابعها هو للقلب أصلا وللجوارح تبعاً وكذلك الأعمال المقصودة بها أولاً صلاح القلب واستقامته وعبوديته لرّبّه ومليكه وجعلت أعمال الجوارح تابعة لهذا المقصود مرادة وإن كان كثير منها مرادا لأجل المصلحة المترتبة عليه فمن أجلها صلاح القلب وزكاته وطهارته واستقامته، فعلم أن الأعمال منها غاية ومنها وسيلة" (٧٠).

ثالثا: مسؤولية المسلم في تسخير جوارحه في القربات:

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بعبادته والتقرب إليه بالطاعات وتسخير جوارحهم في ذلك ولزوم شرعه والذلّ لأمره ونهيه والصبر على ذلك. قال تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾، (سورة مريم، الآية: ٦٥). قال السعدي: "واصطبر لعبادته أي: اصبر نفسك عليها وجاهدها وقم عليها أتمّ القيام وأكمله بحسب قدرتك. وفي الاشتغال بعبادة الله تسليّة للعابد عن جميع التعلقات والمشتبهيات، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾" (٧١).

٦٧- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج ٤، ص ٢٢، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر

الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٦٨- ابن تيمية: الاستقامة، ج ٢، ص ٣٤، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٦٩- ابن قيم: إغاثة اللهفان، ج ١، ص ٨٤.

٧٠- ابن قيم: مفتاح دار السعادة، ج ١، ص ١٧٩، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧١- السعدي: تيسير الكريم الرحمن، سورة مريم، الآية: ٦٥.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه - أو ساقاه - فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: "أفلا أكون عبداً شكوراً؟" (٧٢). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "افتقدت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نساءه فتحسست ثم رجعت فإذا هو راکع أو ساجد يقول: سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت، فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن وإنك لفي آخر" (٧٣). وعن علي رضي الله عنه قال: "ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح" (٧٤). وروي أن عبد الله بن عمر كان له مهراس فيه ماء فيصلي ما قدر له ثم يصير إلى الفراش فيغفى إغفاء الطائر ثم يقوم فيتوضأ ثم يصلي ثم يرجع إلى فراشه فيغفى إغفاء الطائر ثم يثب فيتوضأ ثم يصلي فيفعل ذلك في الليلة أربع مرات أو خمسا (٧٥).

وروي أن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه صلى ليلة حتى أصبح أو كاد أن يصبح يقرأ بآية يركع فيها ويسجد فيها ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ، (سورة الجاثية، الآية: ٢١) (٧٦). فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وأتباعهم من السلف الصالح خير قدوة في التعبد وتسخير جوارحهم وأنفسهم في التقرب إلى الله بالطاعات المشروعة، ومن أحبههم وأراد اتباع منهجهم فليسلك مسلكهم ذاك في العبادة والخضوع لله.

المبحث الرابع: أساليب احتساب المسلم على نفسه وجوارحه:

أولاً: الدعاء وذكر الله:

يستحب للمسلم ذكر الله ودعاؤه، وهذا له صلة مباشرة بإصلاح النفس وطمأنينة القلب ونقاء السريرة. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ،

٧٢- أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي: مسند أبي يعلى، ج ٥، ص ٢٨٠، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٧٣- مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، ج ١، ص ٣٥١.

٧٤- أحمد بن حنبل الشيباني: مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج ١، ص ١٢٥، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

٧٥- عبد الله بن المبارك: الزهد، ج ١، ص ٤٣٨.

٧٦- عبد الله بن المبارك: الزهد، ج ١، ص ٣١.

(سورة الرعد، الآية: ٢٨). قال السعدي في تأثير الدعاء والذكر في إصلاح القلوب: "أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها... وحرّي أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألدّ للقلوب ولا أحلى من محبة خالقها والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله هو ذكر العبد لربه من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك" (٧٧). وفي أثر الدعاء وذكر الله على صلاح النفوس وإحيائها وعمارة القلوب بالتقوى، روي عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحيّ والميت" (٧٨).

وإن الدعاء وذكر الله من صيانة القلب واللسان وسائر الجوارح عن موارد الزلل. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه رفعه قال: "إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمتم استقمنا وإن اعوججت اعوججنا" (٧٩).

ومن الأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم في إصلاح القلوب والجوارح، ما ورد في صحيح مسلم عن كريب أن ابن عباس بات ليلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القربة فسكب منها فتوضأ ولم يكثر من الماء ولم يقصر في الوضوء وساق الحديث وفيه قال: ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتئذ تسع عشرة كلمة، قال سلمة: حدثنيها كريب فحفظت منها ثنتي عشرة ونسيت ما بقي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم اجعل لي في قلبي نورا وفي لساني نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا ومن فوقني نورا ومن تحتي نورا وعن يميني نورا وعن شمالي نورا ومن بين يدي نورا ومن خلفي نورا واجعل في نفسي نورا وأعظم لي نورا" (٨٠).

ثانياً: تلاوة القرآن وتدبره:

قرّر العلماء أن تلاوة القرآن هي أفضل الأذكار والمطلوب فيها القراءة بتدبر وخشوع وخضوع والتأثر بمعاني الآيات. قال السعدي: "قيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين. فعلى هذا، معنى طمأنينة القلب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها

٧٧- السعدي: تيسير الكريم الرحمن، سورة الرعد، الآية: ٢٨.

٧٨- البخاري: صحيح البخاري، ج ٥، ص ٢٣٥٣.

٧٩- الترمذي: السنن، ج ٤، ص ٦٠٥.

٨٠- مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، ج ١، ص ٥٢٥.

تدل على الحقّ المبيّن المؤيد بالأدلة والبراهين وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم وذلك في كتاب الله مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب، التي لا ترجع إليه، فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام<sup>(٨١)</sup>. قال الله تعالى عن المتدبرين لتلاوة القرآن الفاهمين لمعانيه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ، (سورة ق، الآية: ٣٧).

قال ابن قيم في الفرق بين المنتفع من تدبر القرآن في إصلاح قلبه ونفسه وغيره: "الناس ثلاثة: رجل قلبه ميّت فذلك الذي لا قلب له فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه، الثاني: رجل له قلب حيّ مستعد لكنه غير مستمع للآيات المتلوّة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها فهو غائب القلب ليس حاضراً، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه، والثالث: رجل حيّ القلب مستعدّ تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع وأحضر قلبه ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه فهو شاهد القلب ملقي السمع فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوّة والمشهودة"<sup>(٨٢)</sup>. فينبغي للقارئ المتدبر لمعاني القرآن أن يعمل بما وعاه ويقصر نفسه عليه ويلزم جوارحه بآدابه وأحكامه، قال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً"<sup>(٨٣)</sup>.

ويقول ابن قيم عن أثر تلاوة القرآن وتدبره في إصلاح نفس الإنسان وعمل جوارحه: "فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع منه الفكر على معاني آياته فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلتهما وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشيد بنيانه وتوطّد أركانه وترية صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه وتحضره بين الأمم وترية أيام الله فيهم وتبصره مواقع العبر وتشهده عدل الله وفضله وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه وصراطه الموصل إليه وما لسالكه بعد الوصول والقدوم عليه وقواطع الطريق وآفاتها وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصحّحاتها وتعرفه طريق أهل

٨١- السعدي: تيسير الكريم الرحمن، سورة الرعد، الآية: ٢٨.

٨٢- ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج ١، ص ٤٤٢، تحقيق:

محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٨٣- المصدر السابق، ج ١، ص ٤٥١.

الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترون فيه” (٨٤).

ثالثاً: **مجالسة العلماء والصالحين:**

الأصحاب والأصدقاء لهم أثر كبير في التأثير على سلوك الإنسان ومنهجه وعمله وتدينه وأخلاقه ومعاملاته. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾، (سورة الفرقان، الآيات: ٢٧ - ٢٩)، فجعل الخليل والصاحب عاملاً مؤثراً شديداً الأهمية في هداية الإنسان وسلوكه الطريق السليم والتزامه بالحق. وقال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾، (سورة الزخرف، الآية: ٦٧). فأثبتت في الآية أن الخلة النافعة لأصحابها هي ما كانت مبنية على التقوى وتقوم على محبة الله فهي الباقية بدوام ذلك، وهي المفيدة لأصحابها في تعاونهم على الخيرات وتواصيهم بالطاعات وتسابقهم في القربات وغير ذلك مما يزكي النفوس والجوارح.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكبير الحداد لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه وكبير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحاً خبيثة“ (٨٥). قال ابن حجر: ”وفي الحديث النهي عن مجالسة من يتأذى بمجالسته في الدين والدنيا والترغيب في مجالسة من ينتفع بمجالسته فيهما“ (٨٦). وقال النووي: ”فيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فجره وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة“ (٨٧). ويتبين من هذا ما لأثر مجالسة الصالحين من آثار طيبة في إصلاح النفس وإلزامها بالحق ومن ذلك عموم خيرهم لجليسهم وانتفاعه منهم وتأثره بهم وبأعمالهم فالمرء على دين خليله، وأيضاً تبصر المرء بعيوبه وجوانب التقصير عنده وإصلاحها واستكمالها.

٨٤- المصدر السابق، ج ١، ص ٤٥١.

٨٥- البخاري: صحيح البخاري، ج ٢، ص ٧٤١.

٨٦- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٤، ص ٣٢٤، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٨٧- النووي: المنهاج، ج ١٦، ص ١٧٨.

#### رابعاً: المحافظة على الواجبات والإكثار من النوافل:

وفي أداء المسلم للطاعات والأعمال الصالحة من الفرائض الشرعية وتنسكه بالنوافل المستحبة والإكثار منها ما يزكي نفسه ويطهر جوارحه ويقويه ويحجزه عن الزلل في المحرمات ويبعده عن مساوئ الأخلاق ويحفظه من النقائص والعيوب.

قال الطبري: "قد أفلح من زكى الله نفسه فكثرت تطهيرها من الكفر والمعاصي وأصلحها بالصالحات من الأعمال"<sup>(٨٨)</sup>. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: "إن لهذه القلوب إقبالا وإدبارا فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل وإن أدبرت فألزموها الفرائض"<sup>(٨٩)</sup>. وقال الشيخ عبد العزيز السدحان في دور أداء العبادات الواجبة والنوافل المستحبة في إصلاح النفس وحفظ الجوارح من المحرمات: "من اعتصم بالله عصمه الله بإصلاح الجوارح وحفظ الجوارح من الوقوع في المهالك والمعاصي لأن العبادة تهذب جوارح صاحبها، خذ مثلاً المصلي يتورع من أن يقول بلا علم أو أن يتهم أحداً أو أن يصدق إشاعة سارت بين الناس أو أن يزكي أحداً دون بيّنة أو أن يقدر أحداً من دون بيّنة لأن عبادته أثرت عليه، أما من أهمل شأن العبادة فهو لما سواها أهمل"<sup>(٩٠)</sup>.

#### المبحث الخامس: ثمار احتساب المسلم على نفسه وجوارحه:

أولاً: الفلاح:

أول ثمار احتساب المسلم على نفسه وجوارحه هو الفلاح، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾، (الشمس، الآيات: ٧ - ١٠)، جاء في تفسير أبي السعود: "أي فاز بكل مطلوب ونجا من كل مكروه من أنماها وأعلاها بالتقوى... وقد خاب من دسّاه أي خسر من نقصها وأخفاها بالفجور"<sup>(٩١)</sup>. وقال البيهقي: "أي فازت وسعدت

٨٨- تفسير الطبري: ج ١٢، ص ٦٠٣.

٨٩- ابن قيم: مدارج السالكين: ج ٣، ص ١٢٦.

٩٠- محاضرة "الفتن" ألقى بجامع الملك فهد، جدة، أذيعت في قناة المجد بتاريخ ٢٠٠٤/٩/٤م.

٩١- أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج ٩، ص ١٦٤.



نفس زكاها الله، أي أصلحها وطهرها من الذنوب ووفقها للطاعة” (٩٢). وقال الشوكاني: ”أي قد فاز من زكى نفسه وأنماها وأعلاها بالتحقوى بكل مطلوب وظفر بكل محبوب” (٩٣).  
ثانياً: محبة الله تعالى لعبده:

ومن ثمار تزكية النفس وإصلاح الجوارح محبة الله للعبد، كما جاء في الحديث القدسي: ”ابن آدم لن تدرك ما عندي إلا بأداء ما افترضت عليك ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه” (٩٤). قال ابن تيمية: ”ومعلوم أن أفضل الأولياء بعد الأنبياء هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وكانت محبة الرب لهم ومودته لهم بعد توبتهم من الكفر والفسوق والعصيان أعظم محبة ومودة وكلما تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض أحبهم وودهم” (٩٥). وقال: ”فهذا محبوب الحق ومن اتبع الرسول فهو محبوب الحق وهو المتقرب إلى الله بما دعا إليه الرسول من فرض ونقل، ومعلوم أن من كان هكذا فهو يحب طاعة الله ورسوله ويبغض معصية الله ورسوله، فإن الفرائض والنوافل كلها من العبادات التي يحبها الله ورسوله ليس فيها كفر ولا فسوق، والرب تعالى أحبه لما قام بمحسوب الحق فإن الجزاء من جنس العمل” (٩٦).

ثالثاً: عصمة الله تعالى لعبده:

ومن ثمار تزكية النفس وإصلاح الجوارح عصمة الله تعالى لعبده، كما جاء في الحديث القدسي: ”لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فأكون أنا سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به وقلبه الذي يعقل به فإذا دعاني أجبتة وإذا سألتني أعطيته وإذا استنصرني نصرته وأحب ما تعبد لي عبدي به النصح لي” (٩٧).

- 
- ٩٢- الحسين بن مسعود الفراء البغوي: معالم التنزيل، ج ١، ص ٤٣٩، برنامج حاسوبي: الموسوعة الشاملة، الناشر: ملتقى أهل الحديث، ٢٠٠٥م.
- ٩٣- الشوكاني: فتح القدير، ج ٥، ص ٦٣٧.
- ٩٤- علي بن حسام الدين المتقي الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج ١، ص ٤٠٢، برنامج حاسوبي: الموسوعة الشاملة، الناشر: ملتقى أهل الحديث، ٢٠٠٥م.
- ٩٥- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: الفتاوى الكبرى، ج ٥، ص ٢٦٦، تحقيق: حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.
- ٩٦- ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٨، ص ٣٣٨.
- ٩٧- المتقي الهندي: كنز العمال، ج ١، ص ٤٠٢.

فأثبت لهذا العبد مَعِيَّةَ الله وحفظه له وصيانتته عن المكاره والمعاصي ومواطن الزلل، فيعصمه الله بإذنه منها. قال ابن تيمية: "فلما لم يزل متقرباً إلى الحق بما يحبه من النوافل بعد الفرائض أحبه الحق فإنه استفرغ وسعه في محبوب الحق فصار الحق يحبه المحبة التامة التي لا يصل إليها من هو دونه في التقرب إلى الحق بمحوباته حتى صار يعلم بالحق ويعمل بالحق فصار به يسمع وبه يبصر وبه يبطل وبه يمشي، وأما الذي لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة فهذا لم تبق عنده الأمور نوعان محبوب للحق ومكروه بل كل مخلوق فهو عنده محبوب للحق" (٩٨).

رابعا: إجابة دعائه:

وموضع الشاهد لذلك في الحديث القدسي قوله: "إذا دعاني أجبتُه وإذا سألتني أعطيتُه وإذا استنصرني نصرته". وفي لفظ: "وإن استعاذني لأعيذنه" (٩٩). فجعل تزكية النفس وإصلاح الجوارح سبباً لإجابة الدعاء، فإذا لم يستجب للإنسان دعاؤه فعليه أن يحاسب نفسه ويتفقدتها ويبحث عن جوانب التقصير فيها، قال الشيخ ابن باز عن تأخر إجابة الدعاء: "والمقصود أن المشروع للمسلم عندما تتأخر الإجابة أن يتأمل، ما هي الأسباب؟ لماذا تأخرت الإجابة؟ لماذا سلط علينا العدو؟ لماذا هذا البلاء؟ يتأمل ويحاسب نفسه ويجاهدها حتى تحصل له البصيرة بعيوب نفسه، وحتى يعالجها بالعلاج الشرعي" (١٠٠).

خامسا: الفوز بالجنة والنجاة من النار:

ومن أهم ثمار احتساب المسلم على نفسه وجوارحه، فوزه بالجنة ونجاته من النار في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾، (سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ - ٤١)، قال السعدي: "نهى النفس عن الهوى الذي يصدّها عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة، الصادق عن الخير" (١٠١).

٩٨- ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٨، ص ٣٣٨.

٩٩- المتقي الهندي: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٣٢٠.

١٠٠- محاضرة مهمة بسبب اجتياح حاكم العراق للكويت، ألقيت في جامع الملك خالد بأب الحمام بالرياض، الخميس ١٦ رجب عام ١٤١١ هـ الموافق ١٠/٣١/١٩٩١ م.

١٠١- السعدي: تيسير الكريم الرحمن: سورة النازعات، الآية: ٤١.

فإن الانقياد لهوى النفس وشهواتها وترك محاسبتها وعدم قصرها على الحق وعدم منعها من المحرمات من موارد الهلاك. قال ابن قيم: "وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها فإن هذا يؤول به إلى الهلاك وهذه حال أهل الغرور: يغمض عينيه عن العواقب ويمشي الحال ويتكل على العفو فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة وإذا فعل ذلك سهل عليه مواجهة الذنوب وأنس بها وعسر عليها فطامها ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المؤلف والمعتاد" (١٠٢).

وكما قال الشاعر:

إذا ما أطعت النفس في كل لذة  
نُسِبتَ إلى غير الحِجَا والتكْرُمِ  
إذا ما أجبت النفس في كل دَعْوَةٍ  
دعتك إلى الأمرِ القبيحِ المُحْرَمِ

\* \* \* \*